الأب الثاكل

أقصوصة مصرية

بقلم الأديب محمد عبد الفتاح محمد

... ومضى فتحى ينظر إلى زوجته نظرات تفيض بالحنو والاشفاق وهى تجلس قبالته مطرقة واجمة ... كأنها تحاق بروحها فى أجواء هموم وأشجان طوتها فجأة فأنستها زوجها الذى كان يحادثها منذ لحظة ... وكانت فى وضعها هذا برأسها المستقر بين كفيها ، وشعرها الوحف المرسل ، وجسدها اللدن المليء ؛ تبدو عند أهل الفن وحياً صادقاً للجمال الحزين

كانت سميرة — وهذا اسمها — هى التى كفت عن الحديث فجأة عند ما عرض اسم نبيل ابن جيرانهم ، واسترسلت فى أفكار تملكتها فوراً ، فتقلصت ملامح وجهها الساحر وارتسمت عليه علائم اليأس الشديد

وقد احترم فتحى صمت زوجه إذ كان يدرى الواقع القاسى الذى زجها فيه . كان يعلم أنه نكأ الجرح الذى في صدرها بذكره اسم نبيل ابن جيرانهم ، فقد لوّح لها بشيء هى محرومة منه ، وتحس الشقاء والبؤس فى هذا الحرمان

لقد كانت أمنيتها الوحيدة عقب أن بنى بها هى أن ترزق طفلا ؛ أما وقد انصرمت ثماني سنوات على زواجها منه ولم تنسل ، فقد ضاعت آمالها وانهارت أمانيها ، لذلك كان يغشى وجهها الجميل مسحة من الشقاء والبؤس لأنها تمضى في سبيل حياتها دون أمل أو رجاء . ولكم صرحت له أنها على استعداد للتنازل عن أعز ما تملك مقابل أن تنجب طفلا .. ولكن الأبناء — ويا للأسف — لا يشترون بالمال ، وإلا لما استطاع العامل الفقير أن يرى حوله عدداً كبيراً من الأبناء. إنهم هبة الله ونعمته يوليهما من يشاء من عباده

ثم رفع فتحى وجهه إلى أعلى وتمتم فى حرارة وإخلاص :

— اللهم هب لها من لدنك طفلا

وظل ينظر إلى أعلى فترة طويلة كأنما أحس الراحة فى الاتجاه إلى الله فى هذا المطلب الذى خرج تحقيقه عن طوقه وقوته . ثم أخذ يخفض بصره رويداً رويداً حتى وقع على زوجه ، فلمح الدموع تتساقط من عينيها ، فقاض قلبه بين جنبيه وهتف وهو يغادر مكانه إليها :

— سميرة !

وجثا تحت قدميها ثم رفع وجهها المخضل بالدموع وقال :

— أتبكين يا سميرة ... ؟ أنت مجنونة ؟

فحولت وجهها عنه كأنما أخجلها تساقط دموعها ثم مسحت عينيها بمنديلها الوشى الصغير وقالت :

— لا شيء ... دعنى ... دعنى بربك

— إننى أعرف لماذا تبكين ، ولكن ماذا نفعل ولا حيلة لنا فى الأمر ؟

فالتفتت إليه بسرعة وأنعمت فيه النظر لحظة قصيرة ، ثم ابتسمت فى تهكم وقالت :

— ماذا نفعل ... ؟ أجل ماذا نفعل

كانت تعلم أنه فكر كما فكرت هي في أن يسند الأمر إلى طبيب ليرى أيهما المتقيم ، بيد أنه لم يفعل مخافة الهزيمة . لقد استشفت منه هذا الاحساس من حديث لها في هذا الأمر . ولا ريب أنه محق في خوفه ، لأنها تحس إحساساً صادقاً بأنها كأية امرأة أخرى فيها الاستعداد للانسال . . . والتفتت إليه فجأة وقالت :

— ومع ذلك ففي وسعنا أن نصنع شيئاً

— ماذا ؟

— لماذا لا أذهب إلى طبيب ليفحصني ، ومن ثم يعالجني إذا كان العقم مني ؟

وكان في جملتها تعريض بفتحي ، بيد أنه لم ينتبه إليه إذ قال :

أخشى أن تذهب هذه المحاولة سدى . فاني أعلم أن الأطباء لا يملكون — على رغم تهويلهم — في ذلك الأمر شيئاً

وتوقف قليلا ثم استطرد :

— وما يدريك ؟ لعلي أنا السبب

فعادت سميرة إلى إطراقها ولم تجب

* * *

كانت سميرة تحس في نفسها فراغاً كبيراً لا يملأه إلا وجود طفل لها يضيء حياتها المظلمة . أجل ، لقد أحست فجأة وعقب أن هدأت نشوة حبها وخمدت شعلة غرامها — بحياتها يتكاثف فيها الظلام ويتوالد حتى أضحت قاتمة مدلهمة تتخبط فيها يائسة القلب ، مقرحة الجفن . لقد أولاها الله من نعمته كثيراً ، ولكنه حرمها النسل والولد . ها هي ذي ترفل في كل أسباب المتع واللذائذ لا ينقصها شيء منها ؛ غير أنها تحس نقصاً هائلاً يتضاءل إحساسها بالنعيم الذي هي فيه بجانب إحساسها بعذابه وآلامه . لشد ما تتمنى أن يهوى بها الله من حالق هذا النعيم الزائل إلى حياة الفقر والعوز على أن يهبها نعيماً مخلداً ، ابناً تتركه في هذه الحياة الدنيا قطعة منها يخلدها على مر الأجيال والزمن ، ابناً يشع النور من بسمته ويفيض الحنان من نظرته ... ماذا تفيد تلك الفرش الثمينة والرياش الغالية وهذا البيت الجميل وتلك الحديقة الفينانة التي تكتنفه ؟ ماذا يفيد كل ما هي فيه من متاع مع هذا النقص الذي تحسه ؟ إنها تشعر كأنها تعيش وسط صحراء قاحلة تضرب الظلمات في جنباتها ، وأنها بعيدة عن عالم الحياة والنور . إنها لا تدخل غرفة من غرف المنزل إلا تراها قابضة موحشة خالية من الحياة والروح ، فتراها تتلفت يمنة ويسرة كأنما تبحث عن شيء تفتقده بجوارها ... ولا تسير في الحديقة حتى يتولاها السأم والضجر ... ولا تقف أمام المرآة حتى ترى جمالها الذي طالما غرها ، مجرداً من الروح كأنه تمثال من الحجر الأصم . وأين روحها وهو محلق في شرود وراء أمنيتها البعيدة ؟ بل إنها لترى أن جمالها إن هو إلا كأموال البخيل التي يسره أن ينظر إليها كل يوم دون أن يستثمرها وينميها ... تقص وحرمان يقضان مضجعها ويذهلان عقلها ويسيانها سوء الأفكار السود المدلهمة

كانت بحياتها هذه تعيش مسلوبة العقل عازبة اللب ، تعيش بجسدها الآلي كما تعيش الدمى والألاعيب

وما كان ينقذها من عذاب هذا التفكير إلا التريض سائرة إلى بيت صديقتها (زاهية) تبثها شجنها وتنفث إليها خبيئة نفسها . . . وقد تسكب

أعانها الدمع فيفرج عنها عقب هذا البكاء الهادئ ، وتنسى همومها قليلاً فتنطلق هي والصديقة تتجاذبان أطراف الحديث في مختلف الشئون

وكانت زاهية فتاة في ميعة الصبا وشرخ الشباب ، وقد تزوجت منذ بضعة شهور ، وكانت في غمرة الحب الأول ، لذلك كانت تسرى عن نفس سميرة ما هي فيه من عذاب وشجن وتقبح لها ماوراء تربية الأطفال من تعب وإرهاق ، وتعرض على سمعها صوراً عديدة من تفرغ الزوجين لإشباع عواطفهما الجياشة الثائرة بعيدين عن جلبة الأبناء وهموم تربيتهم ... وما كان مثل هذ الحديث ليلقى أذناً من سميرة ، بل كانت تستمع إليه في ذهول وشرود ... ثم تنخرط فجأة في البكاء

وعابت سميرة على نفسها أن تحمل زاهية همومها وأشجانها وهي من نصيبها وحدها .. ومن يدريها ؟ لعلها هي الأخرى لا تنجب بنين فيكون بثها الحزن والهم إيحاء لها بالإمعان في الحزن والهم . . . لذلك راحت تقلل من زيارتها ، بل آلت على نفسها ألا تزورها إلا إذا وثقت أنها تحررت من همومها وأفكارها بعض التحرير ، أو أن في وسعها أن تتلثم بقناع سفيق من البشاشة والمرح

وخرجت سميرة إلى صديقتها بعد أن غابت عنها شهراً برمته فتلقتها زاهية بفرح عنيف تجلى في حركاتها العصبية وضحكاتها المضطربة . ودهشت سميرة لحال صاحبتها فقالت تتكلف البشاشة والمرح:

— ما كل هذا الفرح ياترى؟ خير إن شاء الله!

فأجابتها زاهية بين الضحك والنشيج :

— آه يا سميرة آه ... إن في أحشائي جنيناً ، وعما قريب سأغدو ...

وبترت جملتها إذ لمحت ملامح صديقتها تتقلص ويتغشاها الحزن العميق . فأدركت خطأها في الافضاء لها بالخبر على هذه الصورة السارة البهيجة .. وأحست سميرة بألم هائل يحز في نفسها ... بيد أنها تمالكت نفسها بجهد واصطنعت الابتسام ثم سارت بجوار زاهية إلى غرفة الاستقبال تنتابها الهواجس والأفكار .. لقد جاءت لتنسى همومها قليلا فصدمها محرك قاس أثار عواصف قلبها الهوجاء . . . وقالت في نفسها : « لم يارب هذا العذاب ؟.. لم خصصتني بهذا الحرمان القاسي الشديد ؟.. كل من حولي من النساء ينجبن قرة أعين ... أما أنا ! ... آه ! ... »

وكانت زفرة حارة انشق عنها صدرها الجياش لم تخف على زاهية فأطرقت خجلى من تصرفها إزاء صديقتها المحرومة

وأحست سميرة بالجلسة يسودها التكلف البغيض حيناً والصمت الثقيل حيناً ، فاستأذنت ثم غادرت دار صديقتها ، وسارت تضرب في الطرقات ذاهلة على غير هدى ، وراحت تتفكر في حياتها المحرومة وهي في سيرها البطئ المتئد

وانتبهت من أفكارها الطاغية المستبدة على صوت يهمس في أذنيها كلمات لم تتبينها فاستدارت إلى المتكلم فألفته شاباً غريباً عنها ، فحدجته بنظرة قاسية وقالت له :

— ماذا تبغى ؟

— ماذا أبغى ؟ لا شيء ... غاية الأمر أني رأيتك تسيرين ذاهلة عن الطريق فآثرت أن أحادثك قليلا لأسترعى انتباهك الشارد وأعيد عليك ذهنك الغازب

لم تجب سميره وإنما أنصت إليه النظر فوجدته

شابا طويل القامة عريض المنكبين جميل الوجه ، كان فى مكنته أن يفخر برجولة زاخرة لو لم يضف عليها رداء من التخنث والتأنق. ولم يخف على سميرة مرمى الشاب من ذلك التطفل ، إذ أدركت أنه من أولئك الشبان المتاليف الذين يتسكعون فى الطرقات ابتغاء إيقاع الفتيات فى حبائلهم ... قالت :

— أشكرك .. إنى أفضل أن أسير وحدى

فابتسم الفتى ابتسامة أقرت سميرة بينها وبين نفسها أنها فاتنة خليقة بأن تجذب القلوب حقاً . وقال :

— ولكنى أخشى على هذا الجمال الساحر أن يتعرض للخطر وهو يمشى هكذا ذاهلا عما حوله

ولم تدر سميرة ما الذى منعها أن تصغى للشاب على هذه الوقاحة؛ كأن ثمة دافعاً خفياً يدفعها إلى السير. فوقفت عن السير ونظرت إليه نظرات لاهى بالغاضبة ولا بالمشجعة . كانت نظرات حيرى زائغة ، وأيقن الشاب إزاء حيرتها أنها غدت فى قبضة يده فاستدعى سيارة كانت مارة ودعاها إلى الركوب

وارتاعت سميرة لجرأة الشاب وتلفتت يمنة ويسرة ثم قفزت إلى السيارة مبهورة الأنفاس وارتمت على المقعد وهى ترتعد ارتعادا

وأحست بهول ما أقبلت عليه . وراحت تقلب فى رأسها الأفكار . لقد حادثها الشاب وسار إلى جوارها كأنه يعرفها . ثم توقفت عن السير فاستدعى السيارة . أكان فى مكنتها بعدئذ أن تغضب وترفض الركوب ؟ . أبدا ما كان لها أن تفعل ذلك إذ أحست أن كل الناس عيون تنظر إليها ، وأنهم أدركوا أنها على معرفة سابقة بالشاب . ومع كل فماذا فى ذلك ؟ ستطلب إليه النزول فتمضى إلى حال سبيلها ...

وأيقظها من أفكارها يد الشاب وهى توضع فى رفق على ركبتها فأجفلت إجفالا ، وانقبضت فى ركن العربة وهى تنزع يده عنها، فالتصق بها وراح يفرغ فى أذنيها آيات الغى يحفظها عن ظهر قلب .. ثم طوق خصرها بذراعه وهوى على شفتيها لثما وتقبيلا

أوه . . . ماذا تصنع ؟ ماذا تصنع ؟ أيمكنها أن تعترض ؟ إذن فلماذا ركبت معه ؟ لا ... إنها لا تستطيع أن تعترض ... ولكنها جريمة تلك التى تأتيها . يجب أن تبعد الشاب عنها وتطلب إليه النزول .. ولتصرخ إن أبى . . ولكن من ذا الذى سيستمع إلى صراخها وها هى ذى العربة تطوى الأرض طيا ؟

وأحست بالضعف بين هذين العاملين اللذين يتجاذبانها فأنشأت تبكى فى يأس مرير

ومضى الشاب يسرى عنها بقبلاته المسمولة حتى وقفت السيارة فأمسك بيدها ودعاها إلى النزول . . . ثم صعد بها بعد أن نقد السائق أجرته إلى أحد طوابق المبنى الذى وقفت أمامه السيارة

بعد ساعتين من ذلك كانت سميرة تدخل منزلها وهى تكاد لرزوحها تحت عبء الاثم الذى اقترفت أن تلطم خدها وتجذب شعرها . . . كانت فى حالة يأس هائل فاتجهت قدماً إلى غرفتها وهى تتمتم : « أواه ... لقد عرفت ... »

لقد أدركت الآن فقط الدافع الذي دفعها فى عنف إلى اقتراف ذلك الجرم الشنيع ... هو رغبتها فى إعجاب ولد

* * *

وتقضى شهران شعرت سميرة بعدهما بتغيير تام فى حالتها . إذ أصابها تحول خفيف وامتقع لونها قليلا وصدفت عن الطعام وأخذ الاغماء يعاودها من حين إلى حين فارتاع زوجها من تلك الأعراض وظن أن بها داء فاستدعى الطبيب بنفس خائفة جزعة .

والتفت الطبيب إلى فتحى باسما ثم سحبه من ذراعه إلى خارج الغرفة وهمس فى أذنه يقول :

— أبشر يا سيدى ... إن زوجك حامل

عقلت الدهشة لسان فتحى فظل برهة ينظر إلى الطبيب فى ذهول ، ثم انتبه أخيراً إلى نفسه وقال بصوت يتهدج من شدة الفرح :

— آه ... أشكرك يا سيدى ... أشكرك

ثم تركه وهرول مسرعاً إلى مخدع زوجه ووقف بالباب لحظة قصيرة ينظر إليها وتنظر إليه وكانت نظراتها مزيجاً من الحدة والخجل ... والخوف غير أنه لم ينتبه إلى تلك النظرات الناطقة بل أسرع إليها وهو يهتف :

— سميرة ! أما علمت يا سميرة ؟ إنك حامل . هكذا قال الطبيب ... وافرحتى وافرحتى ... فأسبلت سميرة عينيها وقالت فى نفسها : « نعم ... كنت أعرف . كنت أعرف . لك الله أيها الرجل »

ومنذ تلك اللحظة أحست سميرة بأن هذا الرجل الجاثى بجوارها غريب عنها

* * *

اكتملت أشهر الحمل وأنجبت سميرة طفلا ففرح به فتحى فرحاً شديداً وأطلق عليه اسم عادل ... وفرحت سميره بالطفل ، لا لأنه طفلهما — هى وزوجها — بل لأنه طفلها هى فحسب ، فما كانت لتلقى بالا إلى شعور زوجها الذى كان سبباً فى حرمانها تلك النعمة طوال تلك السنوات الماضية ... لقد ارتكبت إثماً زرياً ... ولكنه أيضاً إثم محتمل . ألم يمنحها ما عجز زوجها عن منحها إياه ... إنها مجرمة فى نظر المجتمع وفى نظر الناس ، ولكن أيدرى المجتمع عن إثمها شيئاً ؟ ما من أحد يعلم ، حتى زوجها لا يدرى من الأمر شيئا ، وخير له ألا يعلم . ولكن أيبلغ بها الغدر والخيانة أن تخدعه هذه الخديعة ؟ لم لا تصارحه بالحقيقة وتفضى إليه بالسر وليكن بعدئذ ما يكون . وما الذى تراه سيكون ؟ سينكرها ؟ سيطردها ؟ أجل ، فما فى وسعه أن يفعل غير هذا . حسن ! وماذا فى ذلك ؟ حسبها إذا طردها أن يكون لها عادل . ذلك النور الذى أشرق فى أفق حياتها المظلم . ذلك الأمل الذى أجرمت لتحققه وأثمت لتبلغه . أجرمت ؟ أثمت ؟ إنها لم تجرم ولم تأثم . إن المرأة لتزخر بعاطفة أخرى غير عاطفة الحب ... عاطفة الأمومة ويجب أن نشبعها كما تشبع عاطفة الحب ... فهى لا تستطيع أن تعيش على الحب فحسب .. وها هو ذا زوجها قد قصر عن إشباع تلك العاطفة المكبوتة فالتمست إشباعها عند رجل غيره ، فهل فى هذا إجرام ؟ . . خليق بالرجل قبل أن يتزوج أن يلمس فى نفسه كل ما يحقق أماني المرأة ... وإلا فليتنح عن الطريق لغيره ... إذن فالذنب ذنبه لا ذنبها .

وهكذا أخذت سميرة تلتمس لنفسها المعاذير وتبرز الحجج حتى انزوى ضميرها وطغى عليه ذلك الحب الوليد الذى نشأ بين جوانحها نحو طفلها العزيز

وتصرمت بضعة أشهر كبر فيها الطفل واستطاع

أن يبتسم لمرأى فتحى، فكاد هذا يطير من الفرح .. وراح يحمله بين ذراعيه ويهدهده فى حنان ويحادثه بلهجة مكسرة إعزازاً وتدليلا ويخرج من الأصوات ما يجعل الطفل يحدق فيه ويبتسم فى سذاجة الطفولة البريئة ...

وكانت سميرة إبان ذلك تنظر إلى زوجها نظرات جامدة لا ترتسم على وجهها تلك البسمة التى تبدو على وجه الأم حين يداعب الأب طفله ... بل كثيراً ما كانت نظراتها تقسو حتى تمتزج بالهكر والازدراء وتكاد أن تهم بأن تنتزعه منه قائلة : « دعه ... دعه أيها الرجل فانه ليس ابنك »

وبلغ الطفل العامين من عمره فكان فتحى لا تسمه الدنيا حين يناديه بلفظة « بابا » أو يحتطى فخديه ويداعب شاربه بأنامله الصغيرة البيضاء فى براءة وطهر ... بل كان يشعر بالزهو والخيلاء حين يسير فى الطرقات الهوينا وبجانبه عادل يتمتر فى مشيته وهو ممسك بيده

واستقرت سميرة وهدأت نفسها وظنت أنها أوتيت خزائن الدنيا فى شخص صغيرها الفدى ... وكانت تنظر إلى وجهه الأبيض المشرق فتحس الحنين يطغى عليها وتشعر بقلبها يخفق بالحب الكبير ... وكثيراً ما عاودتها ذكريات قديمة وهي تنظر إلى وجه ابنها ، فقد كانت ترى فى وجهه ملامح نجم أشرق فى أفق حياتها ساعة ثم خبا ... كانت ترى فى وجهه وجه أبيه فترتعد وتهتز كأنما مسها تيار من الكهرباء عنيف

ملأ الطفل البيت حياة وبهجة ، فأضحى كمدينة مأهولة ساخبة بعد إذ كان كصحراء مجدبة قاحلة .

وما كان يغيظ سميرة ويفسد عليها سعادتها إلا رؤيتها زوجها متعلقاً بابنها كل هذا التعلق

* * *

وكان يسيراً أن تترى الحياة على هذا النسق ، لو لم يحدث ذلك الحادث الجلل الجسيم ، إذ سقط عادل مريضاً محموماً فأضفى على البيت رداء حالكا كئيباً ... وجزع فتحى لمرض صغيره ودعا له الأطباء فكانوا يخرجون بنتيجة واحدة ، هى أنه مريض بحمى معوية ، إن ينج منها فكأنما ولد من جديد

وكاد فتحى يجن من هول الصدمة ... فأضحى لا يغادر غرفة عادل ، بل راح يمضى ليله ونهاره على مقعد بجوار فراشه لا تفارق عيناه وجهه النحيل المصفر ، وإذا أضناه السهر أو أهكه التعب تراه يغفو قليلا فى جلسته ثم ينتبه من غفوته فجأة على نحيب زوجه ونشيجها

ومضى يومان أوغل فيهما المرض فى بدن الصغير فصيره كالخيال، ورسم الموت على وجهه علائم الفناء ، وارتاع فتحى لتقدم المرض السريع فراح يذرع أرض الغرفة فى عصبية واهتياج وهو بين الفينة والفينة يمسح الدمع السخين ويزفر الزفرات الحرار ، بينما جثت سميره بجوار الفراش تتطلع إليه بعينين شعتا كل معانى الجزع واللهفة واليأس

لم تكن تبكى فقد استعصى عليها البكاء ، إنما كان قلبها يتقطع ويتفتت أسى وحزنا ...

وكان الطفل راقداً فى فراشه كالخيال يعلو صدره ويهبط فى اضطراب وحشرجة وتتجه عيناه الطافئتان إلى سقف الحجرة كأنما ثمة شئ فيه يسترعى النظر

وانشق صدر سميرة عن صرخة هائلة دوت فى سكون الغرفة الرهيب ، ثم واتاها الدمع فانفجرت تبكى بكاء مراً . فارتاع فتحى وأسرع إلى الطفل فألقاه بتنفس ببطء وصعوبة فعاوده الأمل ، وأدرك أنها تكاد تجن من شدة الحزن وأن منظر الطفل المشجى قد بث فى نفسها اليأس قتالا مميتا

والواقع أن سميرة أنكرت على القدر أن ينتقم منها هذا الانتقام الرهيب فيسلب منها طفلها ... ماذا عليه لو تركه لها وليفعل فيها هى بعدئذ مايشاء ؟ إنه انتقام ... أجل إنه انتقام . فيالقسوة المنتقم !

والتفت الطفل برأس أثقلته الحمى القاتلة إلى أمه وقال بصوت تمشى فيه الفناء :

— أشرب ... ماوز أشرب

فاندفعت أمه تتعثر فى دموعها للغزار وأحضرت كوبا من الماء وأدنته من فم الصغير وما كاد الماء يلمس شفتيه حتى لفظ النفس الأخير

صرخت سميرة فى جنون وراحت تلطم خدها وتقتلع شعرها فغاض قلب فتحى وجزع . وكأنما خاف الحقيقة فوقف ينظر إلى الطفل الميت نظرات ذاهلة برهة قصيرة . ثم أدركته الحقيقة القاسية فاندفع إلى الجثة يعطرها وابلا من قبلاته وهو يزأر زئير أسد جريح

وانتبهت سميرة من حزنها على صراخ زوجها وعوبله ونظرت إليه وهو منكب على الجثة يقبلها فى كل أجزاء الوجه الممتقع ... نظرت إليه فى ذهول ودهشة ... ثم تولاها الحنق والغيظ ... وتمتمت وعلى وجهها ابتسامة ساخرة :

— يا للثور الأبله ! ماذا يفعل إذن لو كان يعلم ؟!

محمد عبد الفتاح محمد

شركة مصر للغزل والنسج

تقدم لكم المنسوجات القطنية الجميلة على اختلاف أنواعها

معتدلة فى أثمانهـــا ...

رائعة فى ألوانهـــا ...

فبادروا باخذ طلباتكم